**قسم الفلسفة- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة 08 ماي 1945 قالمة.**

**مقياس: الفلسفة اليونانية (4)**

 **أستاذ المادة: رابح مراجي**

 **الفلسفة عند هيراقليطس(535-475) ق م**

 **(536-470) ق م**

 **(544-484) ق م**

 هو حكيم من مدينة أفسوس- وهي أشهر المدن الأيونية الإثني عشرة- ينحدر من عائلة ارستقراطية، كانت تتوارث الكهانة العظمي أبا عن جد حتى وصل إليه الدور أن يكون رجل الدين، واستلم مقاليد ذلك المنصب الرفيع، غير انه لم يستمر في هذه المهمة فتنازل لأخيه الأصغر. ولعل السبب في ذلك يعود إلي تخلصه من علائل المجتمع وقيود الدين الشعبي كي ينطلق حرا مع نفسه ليساجلها الرأي والاختيار، وليبتعد عن عالم جل أهله لا يعرفون كيف يسمعون ولا كيف يتكلمون، ولعل هذا الوضع الذي عاش فيه، وهو وضع شيء من ناحية الفكر والخرافة وغيرها، ساعده على هذا الاتجاه طبيعته المتعالية التي كانت لا ترتضي بالسهل اليسير من الحياة ولا تقتنع بالحلول الوسطي بل تتجه نحو أصعبها موقفا وأشدها غموضا.

ومن هنا قيل عنه أن طموحه وتعاليه دفعاه في فترة من فترات حياته، إلي المطالبة بعرش بلاده من الأمير المغتصب ميلانكوماس، لأنه كان يري في نفسه القدرة على القيام بأعباء الحكم السياسي في وطنه(افسوس).

فهيراقليطس ينظر إلي الناس الذين يتبع بعضهم بعضا،ولا يفكرون تفكيرا حرا مستقلا، وكل شيء يظهر عندهم بمظهر خاطئ، وطريق الدين يسيرون فيه لا يدرون إلي أين ينتهي، والأمر لا يتوقف عن عامة الناس، وإنما تمتد إلي القلة القليلة من المفكرين ليسوا بأحسن حظا كثيرا من عامة الناس.

وهنا أيضا يحمل هيراقليطس على هوزيود وهوميروس خصوصا، وفركيدس والشعراء الذين سبقوه حملة عنيفة، وينتسب إليهم تضليل الناس في الجزء الأكبر من معتقداتهم، لأنهم يتحدثون حديثا خاليا غير قائم على العقل، لان حديثهم هذا قائم على الحس ومصدره الظن، وان العلوم الجزئية التي اتبعها هؤلاء الفلاسفة بمن فيهم هوميروس وهوزيود، لا تثقف العقل.

وبناء على ذلك فان هيرقليطس اتجه نحو الرمزية والتشبيه، وخاصة في كتابه " حول الكون" والذي قسمه إلي ثلاثة أقسام:

* في الكون.
* في السياسة و الأخلاق.
* في ألاهوت.

والكتاب كما وصفه صاحبه" انه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه ولكنه يشير إليه" وهذا يدل على أن الكتاب فيه صعوبة الفهم، فهو إقرار منه بذلك لهذا وصف مؤلفه بالفيلسوف الغامض، غير أن هذا الكتاب يكون قد ضاع جزء منه وما بقي منه حوالي 130 شدرة.

ويقف الباحثون- القدماء، المحدثين-مواقف مختلفة تجاه هذا الغموض المبهم لهذا الفيلسوف:

1. يذهب (أرسطو طاليس) إلى أن صعوبة هذا النص متأتية عن خطا في وضع علامات الترقيم.
2. ويري (ثاوفراسطس )أن اضطراب الكتاب وتناقضه إنما جاء من اختلال عقل صاحب.
3. ويدعي الأستاذ (برانت )أن العصر الذي عاش فيه هيرقليطس وما ساده من حروب كان يقتضي إتباع ذلك الأسلوب لغلبة روح العزلة على الفلاسفة.
4. ويفسر الأستاذ (زيلر )غموضه بأنه كان عميق الرأي جاد الاسمي الفكر شديد الازدراء لأعمال معاصريه وأرائهم، فأثار العزلة واختط طريقا مستقلا في التفكير سلك فيه نحو الإيجاز وضرب الأمثال، وهذا الإيجاز هو سر الغموض.
5. ويعتقد الأستاذ (ييغر)إلي أن هيرقليطس ابتكر أسلوبا فلسفيا عظيم الأثر من حيث انه ساطع في معناه وعبارته وزاخر بالحكيم، ولم يصل إلينا كاملا، ومن هنا كان الحكم عليه صعبا.
6. وتميل السيدة (فريمان) أن غموضه يرجع إلي أسلوبه لا إلي عجز القراء عن الفهم، وانه تعمد ذلك كي لا يتداول الكتاب إلا خاصة الناس من المتعلمين.

وأيا كان من هذه الآراء فإننا نقول أن الكتاب مبثسر المعني، غامض الأسلوب كثير المجاز، ومن هنا فان الرجل اهتم بالعلم والسياسة والحرب وغيرها من القضايا التي ركز عليها، وكلها تخدم المجتمع بالدرجة الأولى ولا تنفيه.

* **فلسفة هيراقليطس:**

تقوم فلسفته على قاعدة التغير الدائم في الأشياء حيث يقول" أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين لان مياها جديدة تجري من حولك أبدا" وهذا يمثل ظاهر المذهب لديه لا حقيقته.

فالتغير عبارة عن مجاهدة تمتاز بها كل الأشياء من حيث أنها في صيرورة مستمرة، والثبات هو ثبات هذا التغيير، فالمدرسة الأيونية لم تدرك إذن في استدلالاتها، حكمة هذا التغير، من حيث أن الأشياء تتصف بالحرارة مثلا،ثم تتصف ذاتها بالبرودة، فلا قرار لها على حال من الأحوال، وقد يتمثل هذا التغير- بالإضافة إلي الماء- بعنصر حسي هو النار" إنها تحي صوت التراب، والهواء يحي موت النار، والماء يحي موت الهواء، والهواء يحي موت الماء، فكل الأشياء تتحول للنار، والنار لكل الأشياء، كالسلع تستبدل بالذهب، والذهب يستبدل بالسلع".

وتظهر لنا أن عملية الاستبدال هذه شبيهة كل الشبه بلهب النار الأصلية بطريقتين: صاعد ونازل، وباتجاهين مختلفين، أولهما يبدأ من التراب ويرتفع إلي النار، وثانيهما يبدأ من النار وينزل التراب، ويخضعان لنظام ثابت متعادل يؤدي إلي التوافق والتوازن كي تتحقق الأشياء تحققا فعليا في الوجود.

ويقول (فلوطرخس) في هذا السبيل:

وأما يرقليطس( هيرقليطس) فذكر أن مبدأ الأشياء كلها من نار وانتهاءها إلي نار وإذا انطقا النار بشكل هذا العالم: وأول ذلك أن الغليط منه إذا تكاثف واجتمع بعضه إلي بعض صار أرضا، وإذا تحللت الأرض وتفرقت أجزاؤها بالنار صار منها الماء طبعا، وأيضا فان العالم وكل الأجسام التي فيه تحللها تنيرها النار إذ هي المبدأ، لان منها الكل واليها ينحل ويفسد".

* **رأي هيراقليطس في العالم:**

إذا أردنا فهم هيراقليطس للعالم، يجب علينا أن نتعرض بشيء من التفصيل لأرائه في أصل العالم، اللغوس( الكلمة )، والصيرورة وصراع الاضداد وتأليفها، ونشير في النهاية ربط هذه الأجزاء في فلسفته بعضها بالبعض الأخر.

1. **العالم:**

أن العالم بما فيه من كائنات ومخلوقات فان هيراقليطس يفسره عن طريق النار فالنار هي المبدأ الأول الذي صدرت عنه الأشياء والذي تعود إليه في النهاية، وهي العنصر الذي يبقي هو ذاته مهما كانت التحولات والتغيرات التي تمر بها الكائنات.

وهذه النار الخالدة أبدا هي سر وجود الأشياء وفنائها، فالتحولات والتغيرات التي تمر بها النار هي التي توجد كل ما هو موجود، فهي كالذهب الذي تبدل به السلع جميعا وهي فوق هذا حياة العالم وقانونه( اللوغوس )، وتتبع النار في تحولاتها وتغيراتها طريقان متعارضان.

* **طريق هابط:** ويبدأ حينما تأخذ النار في الوهن والضعف.
* **الطريق الصاعد:** فيبدأ حينما ترتفع من الأرض والبحار أبخرة، فتتحول إلي سحب، ثم تأخذ العواصف في تحويل السحب إلي بروق ورعود فتتحول الماء إلي نار.

على أن قانون الاضداد يتطلب أن تسود النار حينا، وان يسود الرطب أو البارد حينا آخر، إلا أن النار هي التي تسود في نهاية الأمر، وتعيد كل شيء إليها، لان نهاية العالم هي احتراق شامل،غير أن النار المنتصرة لا تلبث أن تتراخى، وتؤدي إلي نشوء عالم جديد وهكذا، فهي(النار) حياة هذا العالم وقانونه أو هي الكلمة" اللوغوس " فماذا يعني هيراقليطس باللغوس أو الكلمة؟.

يبين هيراقليطس ما يقصده بالكلمة فيما يلي: " من الحكمة إلا تصغوا إلي بل إلى كلمتي، وأنت تقولوا بان جميع الأشياء واحدة" فهذه الكلمة التي يتحدث عنها هيراقليطس ليست هي كلمته، وإنما هي كلمة أزليه صادقة على الدوام، وهي الحق مطلب جميع الحكماء، وان كان الناس يعجزون عن فهمها فان ذلك يعود إلي أنهم يأخذون بالظاهر، ويزعم هيراقليطس بأنه عرف الكلمة عن طريق الوحي أو الإلهام، و لا غرابة في ذلك فقد كان هيراقليطس في وقت ما كاهنا لمعبد (ارطبيس) في مدينته، وان اليونانيين يؤمنون بان الكهنة يتصلون بالإله...فهم اعلم وحينما يقولون شيئا فإنهم لا ينطقون إلا بالحق وذلك بفضل الوحي الإلهي.

 ويستطرد هيراقليطس قائلا " بان الكلمة هي تحكم العالم، وان جميع الأشياء تجري مطابقة لها" كما يقول " ومع أن الكلمة مشتركة بين الجميع، إلا أن غالبية الناس يعيشون وكان لكل منهم فكرة الخاص ".

وما نستخلصه من هذه الفقرات التي تركها هيراقليطس، ما يلي:

أن الكلمة التي يعنيها هيراقليطس ليست كلمته، بل هي الكلمة الكلية، وان جوهر العقل الإنساني هو في حقيقة هذا الجوهر الكلي الإلهي.

1. **رأيه في الصيرورة:**

أن هذا الجانب من المثل في فلسفة هيراقليطس هو الذي جعل من هيراقليطس القيمة التي وصلتها الفلسفة اليونانية الأولى، بل هناك من الفلاسفة من يرد الفلسفة الهيرقليطية كلها إلي فكرة الصيرورة، الم يري (نتشه) و (هيجل)، من جهات مختلفة، في هيراقليطس المبشر بفلسفتها؟ أليس هو الذي صرح بشكل لا يقبل الشك بأنه لا ليس هناك وجود بقدر ما هناك صيرورة؟

وحركة النار الدائمة هي التي تعبر لنا عن الصيرورة التي لا يفلت منها شيء في الوجود، والشيء الذي يبدو لنا ساكنا، يتحرك في الحقيقة، فماء النهر يبدو هو ذاته دائما، ولكن الحقيقة هي انه في جريان مستمر، فأنت لا تستطيع أن تنزل إلي النهر مرتين، لان مياها جديدة ستغمرك باستمرار، وبالغ احد إتباع هيراقليطس بقوله" انك لا تستطيع أن تنزل إلي النهر حتى ولو مرة واحدة" فحقيقة الأشياء لا تعبر عن نفسها في السكون والوحدة في التنوع والاختلاف والتعارض.

والصيرورة عند هيراقليطس لا يمكن أن تفهم بدون التعارض والتضاد، لأنها تقوم أساسا على التضاد بين الأشياء، والأشياء المتضادة يتحول بعضها إلي بعض ليتكون الوجود الحقيقي الحي القائم على صراع الأشياء،بعضها ضد البعض الأخر، فعالم هيراقليطس لا يعرف السلام لان السلام يلغي الصراع، والصراع هو أب الأشياء جميعا، وقانون الأشياء جميعا، ومن هنا فان هيراقليطس ينتقد هوميروس الذي تمني أن يختفي الشقاق بين الإلهة و بين البشر، قائلا:" ألا يري هوميروس انه يصلي من اجل دمار العالم، رأيه مصيبة تلك لو استجبت دعواته، لان الأشياء جميعا سيكون مصيرها الفناء، وينتقد هيراقليطس انكسيندري الذي قال بان الأشياء فس صراع بعضها مع البعض الأخر هو " الظلم " التي ترتكبه هذه الأشياء في حق نفسها، يقول هيراقليطس رادا على انكسيمنر " أن الصراع هو قانون الأشياء وهو لا يولد الظلم لأنه هو العقل نفسه.

زيادة على ذلك فان صراع الاضداد عند هيراقليطس هو الذي يولد الوحدة الحقيقية التي تؤلف من داخلها بين العناصر المتعارضة، ولكن الناس لا يستطعون فهم هذه الحقيقة، فهم لا يستطيعون إدراك أن المتضادين لا يمكن أن يوجد احدهما بدون الأخر، أو أنهما وجهان لحقيقة واحدة، مثل الليل والنهار، والمبدأ الذي يؤالف ويربط بين الأشياء المتضادة عند هيراقليطس، هو هذا الجوهر الخالد الإلهي، مبدأ العالم انه الله موحد الاضداد وهو- مرة أخرى – تلك النار الحية، قانون الحياة.

**والنتيجة أن هيراقليطس يعود إلي المصدر الأول أو المبدأ الأول ألا وهو النار.**